جبال يافع والضالع مهد حضارة الدولة الحميرية

الأمناء كتب محمد الشاذلي:

منذ قيام الدولة الحميرية قبل الإسلام عام110ق.م وحتى زوالها عام 525ق.م كانت حضارة هذه الدولة ومهدها الأساسي عبر التاريخ جبال يافع والضالع والتي كانت الضالع يوما من الأيام جزءاً لا يتجزأ من يافع الكبرى وقبائلها الحميرية وما الشواهد من الآثار والتاريخ والحصون والقلاع لدليل على واحدية الأرض والجغرافيا والإنسان وحيث كانت تبنى الدول أنذاك حضارتها على رؤوس الجبال وقد امتدت هذه الحضارة الحميرية لتشمل السلسلة الجبلية الجنوبية للبلاد مرورا بلودر وشبوة حتى وصلت إلى حضرموت وأجزاء من عمان وما يعرف الآن بالربع الخالي.

وتمددت شمالاً من حدود يافع وحتى العود وإب ويريم (وقد عرفت هذه المناطق فيما بعد بمخلاف جيشان عرفت قديما أرض حمير في هذه المنطقة يافع وضلعها الضالع بأنها الموطن الأساسي لحضارة حمير، ومن الأسماء الحميرية الحالية في الضالع الضبيات في وديانها وجبالها كجبل ذي قار وجبل ذي خمار ووادي ذي فتاح وجبل (عقرم) في خلة الضالع الذي ينسب إلى الملك الحميري عقرم الذي بنى منطقة شكع بالضالع والتي أضحت تتبع مشيخة المفلحي فيما بعد.

وماهذه الجبال الحميرية إلا امتدادا من جبال يافع الأم الحميرية كجبل كنداس وجبل ذي مرسوع، وجبل كساد التاريخي الذي كان في قمة رأسه معبد حميري وكان جبلا مقدسا قبل الإسلام. وأيضا منطقة خلة يعود اسمها التاريخي إلى الملكة الحميرية الأسوانية [أخلة]التي استوطنت في جبال هذه المنطقة.

وقد خط كثير من الكتاب أن جبال الضالع ويافع على طول امتدادها احتضنت أقوى الحضارات عبر التاريخ. ومن أشهر القبائل الحميرية التي اشتهرت في جبال هذه المنطقة قبائل باذان ورعين وذو ريدان وسر وحمير وقبائل دهسم إحدى القبائل الحميرية الشهيرة. وقد لعبت هذه القبائل قديما وما جاورها وعلى طول هذه الجبال دورا كبيرا في صد الغزاة والأعداء من السبئيين والهمدانيين والقتبانيين وغيرهم الذين كانوا يقيمون دولا وحضارات في شال اليمن. ومع مرور الزمن كان أيضا لقبائل يافع التاريخ التي تضم أكبر أجزاء جنوب البلاد بما يعرف اليوم الضالع والشعيب وردفان والحواشب وحالمين ومناطق من لحج وأبين إلى حدود البيضاء. عدا حضرموت التي كانت الدولة الرديفة ليافع بعد سقوط حمير .في جنوب البلاد.. وكانت حضرموت الكبرى عاصمتها شبوة وتضم دولة حضرموت بما هو معروف اليوم [شبوة والوادي وتريم والمهرة وأجزاء من عمان والربع الخالي].

كان ليافع الكبرى بقبائلها[بأضلاعها وأردافها] دورا محوريا في صد الغزاة على الجنوب والمعتدين في المراحل التاريخية بما تتمتع بها من قبائل شرسة وجبال شاهقة وتضاريس وعرة وحصون قوية يعجز العدو من السيطرة عليها. وحتى في فترة الدولة الإسماعيلية والدولة الرسولية والدولة الطاهرية وكل دول الأئمة الزيدية التي حكمت اليمن الشمالي لأكثر من 1200عام، وكانت الحروب بين مد وجزر مع جنوب البلاد وعدم استقرار ،كانت بين احتلال وتحرير واستقلال وبين تمدد وانحسار، وبين نصر وهزيمة وكانت تبدأ المقاومة وطرد الغزاة من جنوب البلاد من رؤوس الجبال المحصنة من أرض حمير يافع الضالع التي لم يتمكن منها الاحتلال كثيرا وخاصة في كثرة الحروب والاجتياحات في زمن دولة الأئمة الزيدية الثانية والثالثة [593هـ —1299هـ]كما استطاعت قبائل أرض حمير أن تحرر مناطق الساحل لأرض حمير بما يعرف اليوم عدن وأبين ولحج وشبوة التي كان يتواجد فيها قبائل من آل الرصاص وآل العبادلة وآل العوالق وغيرها إلى حضرموت، أثر من التراث[الضالع ضلع يافع , والشعيب شعبها , وردفان ردفها] عرفت هذه المقولة قديما في زمن الحروب التي كانت تخوضها الدولة اليافعية الكبرى والتي كانت في صراع مستمر مع دولة الأئمة الزيدية خصوصا بين عامي 930هـ 1299-هـ أيضا عرفت هذه المناطق الضالع ويافع وردفان فيما بعد بـ بلاد الثوار أو (بالمثلث) مثلث الثوار بعدما تم طرد الاحتلال الزيدي والبريطاني من عدن والجنوب وكانت هذه المناطق رمزا للمقاومة وانطلاق الثورة ضد الغزاة كما كانت قبل في كل مرحلة.

وجاء هذا الأثر القديم من العرف السائد أنداك أن يكون للدولة أو القبيلة ،لها قلب ولها أضلاع [صدر] تحمي القلب ولها أرداف تجانح بها عن الصدر والقلب ؛ كمت لها جهة شعاب تمتد تابعة لها. وكان إذ أكسر الضلع سهل الوصول إلى القلب[قلب الدولة]من خلال تجربة الحروب للدولة اليافعية مع دول الائمة الزيدية كان بمجرد سقوط وكسر ضلع يافع [الضالع] وعبورشعابها الممتدة يدخل الغزاة إلى قلب يافع , ويتم إسقاط الدولة كما حصل في زمن الإمام إسماعيل ابن القاسم 1644م1676-م ثم تتجمع القبائل اليافعية من جميع الأرداف وما حولها وتنشئ مقاومة كبيرة لطرد الغزاة وهكذا... فكان السائد للعرف أنداك تعزيز ضلع يافع لأهميته كونه في الجهة المقابلة للعدو حتى لا يكسر وينهزم وعند أي اعتداء تقوم الدولة اليافعية بتجييش قبائلها من الأرداف وتعزيز الضلع كي يحمي القلب وكون الطبيعة الجغرافية حددت هذه التسمية فكان سقوط الشعيب الضالع يعتبر وصول الغزاة مباشرة لقلب الدولة عبر الشعيب وعبر خلة شكع إلى المفلح ومنها إلى قلب يافع، أومن جهة الأخرى يعبر حالمين ومن هنا جاءت التسمية، وكانت قبائل شرسة تسكن المنطقة الممتدة من جبال يافع الحميرية وحتى نهاية جبال الضالع والشعيب عرفت بقبائل سرو حمير والدهسم اليافعية وقبائل الذراحن وبنو شعيب وكلد وبنو جبر وبنو قاصد وقبائل أخرى ،والتي كانت النواة الأولى في بما عرف فيما بعد بـ قبيلة الضالع المعروفة اليوم إضافة إلى قبائها الأصلية.

[مراحل زمنية حولت ضلع يافع الأصل إلى ضالع اليوم] مراحل زمنية أوجدت قبيلة الضالع المعروفة اليوم من رحم الأم يافع سأذكرها باختصار [1]مرحلة الدولة الحميرية [110ق,م] إلى سقوطها في 525ق.م كان لا يذكر اسم الضالع كما كانت تذكر يافع بكل مرحلة تاريخية كون الضالع كانت جزء من يافع وقبيلة من قبائل يافع وجبالا ممتدة من سلسلة جبال يافع بمنطقة واحدة يجمعها تضاريس واحدة وقبيلة واحدة والتي كانت تذكر الضالع كقبيلة من يافع الحميرية كقبيلة ذو رعين أو الذراحن أوذ وريدان وغيرها [2]مرحلة ما بعد الإسلام والخلافة الإسلامية 632ه_750ه جعلت اليمن ثلاثة مخاليف مخلاف صنعاء ومخلاف عدن الجند ومخلاف حضرموت.

وكانت يافع وعزلها وقبائلها المعروفة تتبع مخلاف الجند عدن وكانت لا تذكر الضالع إلاكقبيلة من قبائل يافع...وذكر[القاضي إسماعيل الأكوع] إن مخلاف ذو رعين هو المخلاف الذي لم يتغير بشكل كبير بكل المراحل ويشمل مخلاف ذورعين[يافع ومعه مخلاف جيشان]الذي يضم بلاد الضالع وحتى العود حاليا] [3] مرحلة الدويلات الإسلامية كانت مرحلة غير مستقرة فيها ضم وإلحاق وتمدد وانكماش وانقسام سقطت إثرها يافع على يد الإمام إسماعيل ابن القاسم عام 1644 وقسمت يافع إلى مخاليف أصغر وعزل وظهرت حينها اسم عزلة الضالع و الشعيب كعزل شبه مستقلة، عن يافع ،في بداية القرن الرابع عشر وقبله ،و قبل سيطرة العثمانيين على اليمن عام1538م جعلت من يافع الكبرى أقسام ومخاليف أكثر وعرف جزء منها بـ بلاد الضالع فيما كانت جزء من يافع الأم والتي ضمت إليها بلاد جيشان العود ،وكانت الشعيب وقتها شعب من يافع [4]مرحلة ما قبل الاستعمار البريطاني لجنوب اليمن عام 1839م كانت قد قسمت يافع الكبرى إلى مشيخات وإمارات مستقلها بعضها عن بعض وظهرت لأول مرة الضالع كإمارة مستقلة عن يافع بإمارة مستلقة تماما وكذا إمارة حالمين، وكذا مشيخة الشعيب ،ومشيخة القطيبي، ومشيخة العلوي، ومشيخة المفلحي، وسلطنة يافع السفلى بعدها جمعت بريطانيا السلطنات والمشيخات والإمارات في كل الجنوب العربي عام 1959م تحت اسم محميات عدن البريطانية، والتي كانت تخوض صراعات ونزاعات تارة ،وتارة معاهدات مع الدولة المتوكلية اليمنية في الشمال لحماية محمياتها هذه.

من اجتياح المملكة المتوكلية لها بين الحين والاخر. [5]مرحلة ما بعد وحدة شطري اليمن عام1990م , وبعد أن خرجت من الأم يافع عزل ومناطق كثيرة كالضالع وحالمين والشعيب وردفان ولودر وأبين و لحج وغيرها ،قسم ما تبقى من مناطق يافع الكبرى بعد وحدة اليمن عام 90م بين محافظتي أبين ولحج إلى يومنا هذا بعد أن كانت هذه المحافظات في يوم من الأيام ضمن الدولة اليافعية وجزء لا يتجزأ من تاريخ وجغرافيا يافع الكبرى. ثلثا قبائل الضالع وبيوتها يافعية الأصل ، وهذه هي البيوت مع تقارب اللهجات والعادات والتقاليد ولون البشرة وقوام الجسم،يكاد الإنسان الاتي من خارج هذه المنطقة، لا يستطيع أن يميز بين الضالعي واليافعي لشدة التقارب والتشابه الكبير بين أبناء هذه المنطقة الواحدة ،ويرجع كثيرون السبب، الى البيئة الاجتماعية والتضاريسية الواحدة والماء الواحد ،ويرجع آخرون هذا التقارب الى أن مرجع المنطقتين قبيلة واحدة، وأصل واحد ،ومع كل هذا التشابه والتقارب الكبير دللت عليه أسر ضالعية كثيرة تحتفظ بأصولها اليافعية وتفتخر بضالعيته اليافعية والتي كانت سببا في واحدية التشابة الكبير وأذكر بعضا من هذه البيوت الضالعية الموجودة حاليا في مدينة الضالع مثل بيوت المرافدة (المرفدي)وبيوت المفالحة(المفلحي) وبيوت السعدي وبيوت الحدي وبيوت الكلدي (وحارة كلد)وبيوت النقيب، وبيوت علوي والقطيبي وبيوت العفيف(عفيفي) وبيوت الخلاقي وبيوت ثابت ومثيني وبيوت شايف وبيوت مساعد وبيوت مرشد وبيوت الصهيبي وبيوت العبادي(عبادي) وبيوت اليافعي وبيوت لعرج وبيوت الحنق وغيرها من البيوت الذي لا يسعني عدها وإنما هذه البيوت الضالعية اليافعية على سبيل المثل لا الحصر، وأما ثلثها الباقي بيوت متنوعة ضالعية أصلية معروفة وبعضها ينحدر من ردفان , وبعضها لمناطق أخرى مجاورة وغيرها.

المصادر:

Yemen divid the story of filed state in south Arabia- 1- معجم البلدان (ياقوت الحموي) -5 بوابة اليمن -2 ابن وضاح اليعقوبي -6المختصر المفيد من تاريخ يافع المجيد -3 الزيدية إسماعيل لكوع -7 المكتبة الاميرية والضالع للتوثيق التاريخي و بوابةاليمن -4 الإمبراطورية البريطانية -8 الملل والنحل ،الزيدية ،وكتاب الجامع عن المهاجري ل بامطرف -9 كلام الكاتب معلومات مشافهه -10المسالك والممالك عبدالله خرذابة-11معلومات خاصة.